

من البنية النفسية إلى البناء الاجتماعي: قراءة تحليلية في المقاربات المفسرة للتعصب وخطاب الكراهية

From Psychological Structure to Social Construction: An Analytical Perspective on the Explanatory Frameworks of Fanaticism and Hate Speech

، دناقة أحمد*1 هراو خثير2

¹ المركز الجامعي آفلو، (الجزائر).

k.heraou@cu-aflou.edu.dz

<https://orcid.org/0009-0000-5030-2523>

² المركز الجامعي آفلو، (الجزائر).

a.dennaka@cu-aflou.edu.dz

<https://orcid.org/0009-0000-5012-3488>

تاريخ الاستلام: 2026-01-12 تاريخ القبول: 2026-04-17 تاريخ النشر: 2026-05-19

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تقديم تفسير سوسيولوجي لظاهرة التعصب وخطاب الكراهية في المجتمعات المعاصرة من خلال المنهج التحليلي النظري للاتجاهات النفسية والاجتماعية، مستخدماً أدوات التحليل المقارن للنظريات الرئيسية: الصراع الواقعي بين الجماعات (شريف)، الهوية الاجتماعية (تاجفل وترنر)، الاستغلال والقوة غير المتكافئة (فرانزواي)، والتمييز المؤسسي. تتعدد أشكال التعصب (إيديولوجي، ديني، اقتصادي، قبلي) وتتغذى بالإعلام الدعائي عبر منصات التواصل. أهم الاستنتاجات تكمن في أن التعصب نتاج تفاعل بني نفسي (إحباط، هوية) وبني اجتماعية (لامساواة، تمييز)، مما يفتح آفاقاً لاستراتيجيات تكاملية للوقاية والتدخل.

كلمات مفتاحية: البنية النفسية؛ البناء الاجتماعي؛ التعصب؛ خطاب الكراهية

Abstract :

The aim of this research is to provide a sociological interpretation of the phenomenon of fanaticism and hate speech in contemporary societies through a theoretical and analytical approach to psychological and social perspectives. It employs comparative analytical tools to examine key theories, including the realistic group conflict theory (Sherif), social identity theory (Tajfel & Turner), the theory of exploitation and unequal power (Franzoi), and institutional discrimination. Fanaticism manifests in multiple forms—ideological, religious, economic, and tribal—and is often fueled by propagandist media across social platforms. The main findings indicate that fanaticism emerges from the interaction between psychological structures (such as frustration and identity) and social structures (such as inequality and discrimination), thereby opening pathways toward integrative strategies for prevention and intervention.

Keywords: psychological structure; social structure; fanaticism; hate speech

* المؤلف المرسل

مقدمة :

على الرغم من أن مصطلح "خطاب الكراهية" يُستخدم على نطاق واسع في المجالات القانونية والسياسية، فغالباً ما يكون هناك خلاف حول نطاقه، وكيف يمكن أن نتصدى له بأفضل الطرق. ومنه سنبداً هذه الورقة البحثية بالكشف بإيجاز عن هذا المصطلح (خطاب الكراهية)، وشرح سبب الحاجة إلى استراتيجيات وسبل مكافحته بشكل فعال من خلال النظريات التي تناولته بالدراسة والتحليل.

تم تعريف مصطلح "خطاب الكراهية" وفهمه بطرق مختلفة على المستوى الوطني والمستويات الدولية. من المهم التمييز بين العبارة العادية "الكلام الكريه" الذي أصبح مفهوماً شاملاً متعدد المعاني، والمصطلح القانوني "خطاب الكراهية"، في إشارة إلى التعبيرات التي يعاقب عليها القانون الجنائي أو الموضوعة للعقوبات بموجب القانون المدني أو الإداري. وفقاً لتوصية لجنة الوزراء لعام 1997 (97) رقم 20 "بشأن خطاب الكراهية (speech, 1997) يجب أن يُفهم المصطلح على أنه يشمل جميع أشكال التعبير التي تنشر، وتحرض على الترويج أو تبرير الكراهية العنصرية أو كراهية الأجانب أو غير ذلك من أشكال الكراهية القائمة على أساس التعصب، بما في ذلك: التعصب الذي تعبر عنه القومية العدوانية والعرقية والتمييز والعداء ضد الأقليات والمهاجرين.

كما يفهم على أنه "الدعوة أو الترويج أو التحريض، بأي شكل من الأشكال، لتحقير أو كراهية أو تشويه سمعة شخص أو مجموعة من الأشخاص، وكذلك المضايقة أو الإهانة أو التنميط السلبي أو الوصم أو التهديد لشخص أو مجموعة من الأشخاص ومبررات جميع أنواع التعبير السابقة، على أساس "العرق" أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو العرقي أو العمر أو الإعاقة أو اللغة، أو الدين أو المعتقد والجنس والأمور الشخصية الأخرى من خصائص أو مكانة. ينص كذلك التقرير على أن خطاب الكراهية قد يأخذ الشكل من الإنكار العلني أو التقليل من شأن أو تبرير أو التغاضي عن جرائم الإبادة الجماعية ضد الإنسانية أو جرائم الحرب التي أثبتت المحاكم أنها وقعت بالفعل، وتمجيد الأشخاص المدانين بارتكاب مثل هذه الجرائم.

أولاً: الاتجاه السيكولوجي في تفسير التعصب وخطاب الكراهية:

1. نظرية الإحباط:

تفترض هذه النظرية أن الإحباط غالباً ما يثير العدوان، وعندما يكون سبب الإحباط مهدداً أو غامضاً وغير محدد، فإننا على الأرجح نعيد توجيه عدواننا وجهة جديدة نحو موضوع بديل يكون بمثابة (كبش الفداء) نصب عليه عدواننا في شكل تعصب. وعلى ذلك تتعامل هذه النظرية مع التعصب بوصفه عدواناً مُزاحاً، فالعدوان له منافذ كثيرة، فإلى جانب الإسقاط أو التبرير فإن العدوان غالباً ما يتعرض للنقل بمعنى استبدال هدف بهدف، ذلك أنه إذا حيل بينه وبين الإفراغ فإنه لا يلبث أن يرتد نحو الذات فتفتك النفس بنفسها (محمد، 2018)

عموماً، تفترض هذه النظرية أن مركز مشكلة التعصب الذي تدور حوله كل مظاهرها إنما هو العدوان وقابليته للإزاحة. حيث يرى شيدلنجر أن الميول العدوانية تظهر دوماً داخل الجماعة شأنها في هذا شأن الدوافع (الليبيدية)، وهذه الميول قد تكون أحياناً رد فعل على الحرمان -رغم أن بعضها قد يصدر عن الهو بشكل تلقائي، إلا أن الروابط الوجدانية بين الأفراد تقاوم ظهور العدوان داخل الجماعة وتوجه الميول

العدوانية إلى خارجها إلى فرد معين أو جماعة بأسرها فيما يسمى بظاهرة الضحية (لندا، د.ت). فكما يغرس البدائي إبرته في تمثال من الشمع يمثل عدوه، كذلك يغرس المتحضر إبرة رمزية في ضحية بديلة. لذلك يؤكد "فرويد" أن الصراع بين الجماعات أكثر انتشاراً وأعصى على الحل من الصراع داخل الجماعة الواحدة، وذلك لأن من المستطاع إزاحة الدوافع العدوانية إلى خارج الجماعة؛ ذلك أن الروابط الليبديّة (الروابط بالموضوعات والتوحدات) بوصفها المميز الرئيس للجماعات السيكلوجية، تيسر نسبياً تغيير الاستجابات العدوانية وتعديل اتجاهها، في حين أن الصراع بين الجماعات سوف يتدعم غالباً بالمشاعر السلبية المزاحة التي تنشأ أصلاً في مجرى حياة الجماعة.

إذا كان العدوان لا بد منه سواء كاستجابة لضغوط البيئة (أو للقوى الداخلية بوصف العدوان جزءاً من جبهة الإنسان النفسية)، وإذا كانت الإزاحة إحدى الآليات الدفاعية التي تنجح الأنا إلى استخدامها في التعامل مع هذا العدوان عبر نقله إلى جماعة خارجية، يتبين لنا أن الإزاحة كميكانزم نفسي داخلي يمكن أن تسهم في فهم التعصب. على ذلك، فالنظرية تقدم منطلقاً عاماً في التعصب قادراً على تفسير انتشاره كسمة شائعة في الحياة الاجتماعية الإنسانية، كما تقدم إسهاماً بشأن الفروق الفردية في التعصب على اعتبار أن الأفراد الأكثر إحباطاً غالباً ما يكونون أكثر تعصباً قياساً إلى من هم أقل إحباطاً. إلى جانب ذلك، فهذه النظرية تعد مؤثرة جداً وواسعة الانتشار ويشار إليها في المراجع الأساسية عن التعصب بكثير من الاهتمام، وبالإضافة إلى قوتها وعموميتها، فإن أحد أسباب جاذبيتها هو قابليتها للتطبيق على الظواهر الاجتماعية المهمة، أو بمعنى آخر قدرتها على شرح هذه الظواهر.

ومع ذلك، فثمة مأخذ على هذه النظرية منها أنها لا تعين محددات اختيار كبش الفداء (الضحية)، إلا أن برجمان يرد بأن الاتجاهات السلبية المتعلمة تلعب دوراً مهماً في اختيار كبش الفداء. كما يرى كاردييل بأن الثقافة السائدة تحدد بادئ ذي بدء الموضوعات المستهدفة للتعصب، فهذه الجماعات معدة مسبقاً ومؤهلة اجتماعياً لأن تكون كبش فداء.

وفي تحليله لظاهرة كبش الفداء يرى فؤاد زكريا أنه حتى لو قيل إن المجتمع يتخذ أقلية موجودة فيه ككبش فداء يفرغ فيه شعوره بالخيبة أو اليأس أو الإخفاق -وهو أمر لا يمكن للباحث الموضوعي أن ينكر حدوثه في حالات معينة على الأقل- فإن وقوع الاختيار على أقلية بالذات طوال آلاف السنين لكي تكون كبش فداء كالأقلية اليهودية مثلاً، فإن هذا أمر يدعو إلى التأمل العميق ويدفعنا إلى البحث عن جذور التعصب في هذه الأقلية ذاتها قبل أن نبحت عنها في المجتمع المحيط.. وعلى ذلك فالتعصب ضد اليهود تعصب مضاد أو هو في معظم حالاته رد فعل، أما الفعل الأصلي والتعصب الأساس فيرجع إلى خرافات وأساطير استفزازية عنيدة ظلت على الدوام تكون جزءاً لا يتجزأ من التراث اليهودي. هذا التحليل الجدلي الذي قدمه فؤاد زكريا يجعلنا نفترض أن جماعة معينة يدخل التعصب أصلاً في نسيج عقليتها هي جماعة مرشحة لأن تكون كبش فداء من قبل جماعات أخرى. (فؤاد، القاهرة 1971)

ومن المأخذ على هذه النظرية أيضاً أنها فردية جداً لدرجة أنها تعجز عن التعامل بكفاءة مع الظواهر الجماعية، أو هي غير شاملة لأنها تعني أن العدوان الجمعي ضد جماعة خارجية يمثل أشكالاً من التراكمات والتحويلات للحالات الدافعة لأفراد هذه الجماعة. إلا أن دكت يرى أن المأخذ يفتقد نقطة مهمة، فالنظرية

تحدد نشأة التعصب ليس كحالة دافعة قابلة للانتشار بين الأفراد، وبدلاً من ذلك تفترض أن الحياة الإنسانية المنظمة هي مصدر خفي للإحباط باعتباره عملية مستمرة، وأن ذلك يخلق تراكمات للعداء الهائم الطليق (Floating Hostility) داخل الأفراد. وعلى ذلك وحسب هذه النظرية فالنشوء الفعلي للتعصب هو اجتماعي وليس فردي الطابع، وأن الإحباطات الاجتماعية القائمة في البنية الاجتماعية تظهر على السطح عن طريق ميكانزمات الدوافع الفردية.

ومن الانتقادات لهذه النظرية كذلك، أن الدراسات التي حاولت اختبار دور إزاحة العدوان الناجم عن الإحباط في نشأة الاتجاهات التعصبية معظمها من نوع الدراسات الارتباطية التي تبدو أنها تصلح لتناول التعصب على ضوء الفروق الفردية، وليس لتأكيد الإحباط كسبب عام للتعصب على اعتبار أن الدراسات الارتباطية لا تؤدي إلى استنتاجات سببية واضحة، أضف إلى ذلك تضارب نتائج هذه الدراسات الارتباطية حول العلاقة بين التعصب والإحباط.

ومع ذلك، فعدد من الدراسات التجريبية أكدت أن الإحباط يسبب التعصب، من هذه الدراسات يذكر دافيدوف دراسة كل من نيل ميللر (Neal Miller) وريتشارد بجيلسكي (Richard Bugelski) فقد قام الباحثان بإعطاء امتحان للشباب في معسكر طويل ممل، وكان الامتحان يحتوي على أسئلة صعبة جداً، واستغرق الاختبار فترة طويلة أجبرت الأفراد على أن تفوت عليهم فرحة عمل مسرحي محلي كانوا يتوقعون إلى رؤيته طوال الأسبوع. وطلب من المشتركين في البحث قبل وبعد الامتحان أن يقوموا بمراجعة قائمة عن السمات المرغوبة وتلك غير المرغوبة، ويحددوا ما إذا كانت موجودة أو غير موجودة في الشعوب المكسيكية واليابانية. وبعد تلك الخبرة المحبطة حدد الشباب عدداً مهماً ولكن قليلاً جداً من السمات الإيجابية وعدداً كبيراً ضخماً من السمات السلبية. وقد افترض الباحثان أن الإحباط قد زاد من رغبتهم في العدوان وبما أنه لا يمكن تفريغ شحنة العدوان ضد القائمين بالتجربة، فإن العدوان أزيح إلى هدف ملائم". ودراسات تجريبية أخرى -وإن كانت قليلة جداً- أظهرت كذلك أن المتعصبين عادة ما يميلون إلى إزاحة عدوانيتهم الناتجة عن مواقف جماعية.

إجمالاً، قد تكون النظرية فعلاً بحاجة إلى تأييد أكثر من خلال مزيد من الدراسات التجريبية المحكمة، إلا أننا يمكن أن نقبل فكرة أن الإحباط وإزاحة العدوان قد يكون سبباً عاماً للتعصب.

2. التصنيف المعرفي (Cognitive Categorization)

يستند هذا التوجه إلى دور العمليات المعرفية العادية في نشأة التعصب؛ إذ يفترض أن الاتجاهات التعصبية تنبع من الجوانب الأساسية للمعرفة الاجتماعية، أي الطرق التي نفكر بها وننظم عبرها معلوماتنا عن الآخرين لصياغة أحكامنا. وقد ركز البحث في العقد الأخير على هذا المنحى، مسفراً عما يقرب من 1500 دراسة تؤكد أن التعصب ليس مجرد نتاج للتشريط الاجتماعي أو إزاحة للعدوان، بل هو نتاج لعمليات معرفية تهدف إلى تبسيط وتنظيم البيئة الاجتماعية عبر التصنيف الاجتماعي (Social Categorization) لانه في الواقع، تضاعفت خطورة هذه العمليات المعرفية بفعل خوارزميات منصات التواصل الاجتماعي (مثل فيسبوك وإكس/تويتر). تعمل هذه الخوارزميات على خلق ما يُعرف بـ "غرف الصدى" (Echo Chambers)، حيث يُحاط المستخدمون بمعلومات تؤكد قوايهم النمطية وتحيزاتهم المسبقة فقط، وتحجب

عنهم الآراء المخالفة. هذا الانتباه الانتقائي الرقمي يعزز يسمى (الحلقة المعرفية المغلقة) بشكل آلي، مما يسرع من وتيرة تحول التحيز المعرفي العادي إلى خطاب كراهية صريح ضد جماعات معينة أو أشخاص محددين، كما نشهد في الاستقطاب السياسي الحاد أو التنمر الإلكتروني ضد اللاجئين والأقليات.. الخ. مما يؤدي إلى نشأة القوالب النمطية (Stereotypes) التي تشكل الأساس الضروري للتعصب وتكرسه. وتعمل هذه القوالب عبر آليات محددة مثل:

1.2. خلق التباعد: يركز أفراد "الجماعة الداخلية (Ingroup)" على جوانب التشابه بينهم تأثير التشابه الافتراضي، بينما يبالغون في رصد الاختلافات مع "الجماعة الخارجية".

2.2. الانتباه الانتقائي: بمجرد نشاط القالب النمطي، يستدعي الذهن سمات الجماعة الخارجية بسهولة حتى دون خبرة مباشرة. وينتبه الأفراد فقط للمعلومات التي تؤكد قوالبهم، بينما يتم رفض أو إنكار المعلومات المتعارضة.

تؤدي التحيزات الإدراكية الناجمة عن القبولية إلى نشوء ما يُعرف بـ "الحلقة المعرفية المغلقة"، التي تساهم في مقاومة التغيير وضمان استقرار الصور النمطية عبر الزمن. وتنبثق عن عملية التصنيف الاجتماعي آليات معرفية محددة تعزز التعصب، من أبرزها ما يسمى خداع تجانس الجماعة الخارجية؛ حيث يميل الأفراد لإدراك أعضاء الجماعات الأخرى كنسخة واحدة متشابهة مع إدراك التنوع داخل جماعتهم، بالإضافة إلى (التحيز للجماعة الداخلية) الذي يدفعنا لتفضيل من يشبهوننا، والارتباط الخادع الذي يفسر المبالغة في ربط السلوكيات السلبية بالأقليات.

ورغم قوة هذا التفسير، يرى "دكت" (Duckitt, 2000) أن العمليات المعرفية وحدها لا تكفي؛ فالقبولية كعملية ذهنية هي آلية محايدة، لكن "المحتوى السلبي" لها يتقرر بناءً على الظروف الاجتماعية والمظالم القائمة. وقد أيدت تجارب "الجماعات الدنيا" لتأجيل هذه الرؤية، إذ أثبتت أن مجرد التصنيف العشوائي للأفراد كاف لتوليد تحيز يظهر في التذكر الانتقائي للإيجابيات وتفضيل أعضاء الجماعة في توزيع المكافآت. وختاماً، لا يمكن فصل هذه العمليات المعرفية عن الدوافع الوجدانية؛ فالتحيز للجماعة الداخلية يعكس في جوهره حاجة إنسانية لتقدير الذات، وهو ما تؤكده نظرية الهوية الاجتماعية.

3.2. الحرمان النسبي (Relative Deprivation)

تعد نظرية الحرمان النسبي لـ "رانسيمان وجور" (Runciman, 1966) من أهم النظريات التي طرحها الباحثون لتفسير ظواهر التطرف والعنف، ومع ذلك يمكن أن تفيد هذه النظرية في إلقاء الضوء على الديناميات الاجتماعية المحركة للتعصب، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار التداخل الشديد بين التعصب والتطرف والعنف. وكما يعرفه (جور)، فإن الحرمان النسبي يعني: «التعارض بين توقعات الأفراد عن الأشياء وشروط الحياة التي يعتقدون أنهم يستحقونها وبين قدرات بيئتهم الاجتماعية، أو هو التفاوت السلبي بين التوقع المشروع والواقع الذي يؤدي إلى سيطرة ما يمكن تسميته بالموقف الإحباطي على عدد كبير من الأفراد في المجتمع، وهو موقف يواجهون فيه عوائق مادية أو نفسية تحول دون حصولهم على قيم معينة أو احتفاظهم بها، مع وعيهم بالقوى الكامنة خلف التدخل والإعاقة، الأمر الذي يدفعهم إلى اللجوء إلى العنف لتجاوز هذا الموقف».

ينشأ الحرمان النسبي من إدراك التعارض بين ما يمتلكه الشخص وما يعتقد أنه يستحقه، وتلعب عمليات المقارنة دوراً بارزاً في هذا الصدد؛ فالفرد يدرك هذا التناقض من خلال المقارنة مع الجماعات الأخرى. وعندما يدرك أعضاء جماعة ما أنهم يعانون الحرمان نسبياً بالمقارنة مع الجماعات الأخرى، فإنهم يعبرون عن استيائهم وسخطهم في شكل عداة ضد هذه الجماعات موضع المقارنة. على سبيل المثال، في الاقتصاد سريع النمو قد تتحسن معظم أحوال الناس الاقتصادية، ولكن مشاعر الحرمان النسبي يمكن أن تنشأ بين هؤلاء الذين تتحسن أحوالهم ببطء شديد حيث يرون جماعات أخرى قد تحققت لها مكاسب أكثر، وذلك من شأنه أن يثير لديهم مشاعر عدم الرضا والامتعاض التي يعبرون عنها في شكل خصومة ضد هذه الجماعات الأكثر تميزاً. ويمكن أن نجد مثلاً واقعياً على ذلك في أحداث الشغب التي قام بها السود في الولايات المتحدة خلال الستينيات؛ فرغم التحسن الاقتصادي بشكل عام شعر السود أن أحوالهم لا تزال أسوأ مقارنة بالبيض، وقد ساهم ذلك -حسب ما أوضحت التحليلات- في خلق مشاعر الكراهية والعنف ضد البيض. (Taylor, 1997)

هكذا، تبرز النظرية كيف تتفاعل الأوضاع الاجتماعية مع العوامل السيكولوجية في نشأة التعصب؛ إذ تربط بين الحرمان كعامل اجتماعي والعوامل السيكولوجية من خلال مفاهيم السخط والاستياء التي من الأرجح أن تؤدي إلى التعصب. مرة أخرى، عندما تكشف المقارنات أن جماعات دون غيرها تتمتع -دون مشروعية- بمزايا خاصة، فإن الجماعات التي تعاني الحرمان تجد نفسها مدفوعة بشكل كافٍ لإحداث تغيرات اجتماعية، وقد تتسم هذه المحاولات، التي تسعى لإعادة التوازن، بالعنف. فقد ربط (جور) مستوى الحرمان النسبي في ثلاثة عشر بلداً بقائمة الاحتجاجات الاجتماعية المستمدة من المصادر الأرشيفية، وكما هو متوقع كان الارتباط إيجابياً؛ فالجماعات التي عانت الحرمان أكثر كانت أكثر شغباً وعنفاً. ودراسات أخرى عديدة أوضحت كيف أن العنف الاجتماعي الذي تمارسه الجماعات الاجتماعية المختلفة يرتبط بمستويات الحرمان النسبي التي تعانيها هذه الجماعات.

وفي مصر تأكدت هذه الفرضية في أكثر من دراسة؛ ففي بحث المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن قضايا العنف الجماهيري خلال عامي 1973-1974، تبين أن المشتركين في هذه القضايا غالبيتهم من الفقراء. وفي دراسة محمود أبو النيل (1977) عن أحداث 17-18 يناير 1977، اتضح أن أحداث العنف التي اشترك فيها هؤلاء تعكس إحباطهم الناتج عن عدم إشباع كثير من حاجاتهم بسبب ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية الضاغطة. ذلك ما أسفرت عنه أيضاً دراسة عزة عبد الغني حجازي (1986) لحوادث العنف الجماعي التي وقعت في الفترة من 1977-1986، ودراسة عبد الحميد صفوت إبراهيم (1990) لأحداث الشغب في عين شمس يومي 12-13 أغسطس 1988 التي كشفت عن الدور الذي لعبه تضارب المكانات والوعي بالحرمان النسبي.

غير أنه ينبغي أن نميز بين نوعين من الحرمان النسبي -على نحو ما أوضح رانسيما ن هذا التمييز الذي أغفل في العديد من الدراسات التي تعرضت لبحث علاقة الحرمان النسبي بالاتجاهات التعصبية:

- الحرمان الأنوي (Egoistic) وهو شعور الفرد بالحرمان النسبي مقارنة بالأفراد الآخرين.

• **الحرمان الجماعي (Fraternal):** وهو شعور الجماعة بأنها محرومة نسبياً قياساً إلى الجماعات الأخرى (سواء شعر أفرادها أم لم يشعروا بالحرمان على المستوى الشخصي). إذن، الحرمان الأنوي ينشأ خلال مقارنة الفرد لذاته بأفراد آخرين يشبهونه، أما الحرمان الجماعي فينشأ من خلال المقارنات التي تحصل بين الجماعات وعلى ضوء ما تؤكد الدلائل، فإن الحرمان الجماعي هو الأكثر شيوعاً والأكثر فاعلية في استثارة الخصومة بين الجماعات وحالات الاحتجاج الاجتماعي، فالحرمان الأنوي لم يلعب سوى دور ضئيل، بل لم يكن له دور إطلاقاً في حالات كثيرة.

ثانياً: الاتجاه السوسيولوجي في تفسير التعصب وخطاب الكراهية

في حين أوضحنا في الأجزاء السابقة العمليات النفسية الأساسية التي تكمن وراء تشكل الاستعداد البشري الكامن للتعصب، فإن هذه العمليات لا تعمل بصورة آلية أو محتومة. بل تتطلب ظروفاً اجتماعية معينة ضرورية لبلورة وتنظيم وتوجيه هذه إذ لا ينتج التعصب عن العمليات النفسية إلا في ظل عوامل محددة في البيئة الاجتماعية. هذا ما نقصده بالديناميات الاجتماعية للتعصب.

ما يؤكد على التعصب كظاهرة اجتماعية حقيقية هو أن الجماعات الاجتماعية تميل إلى التميز بأنماط معيارية أو اجتماعية للتعصب. بناءً على ذلك، فإن الاتجاهات التعصبية التي يتبناها الفرد ضد جماعة ما يمكن تتبع أصولها إلى الجماعة التي ينتسب إليها، حيث يصبح التعصب عندئذ معياراً جماعياً مشتركاً تعتمد عليه الجماعة ويلتزم به أعضاؤها تحت ضغط الجماعة وضرورة الامتثال لمعاييرها الاجتماعية. من هذا المنطلق، يقترح التراث النظري والبحثي أربعة تصورات رئيسة لتفسير التعصب وخطاب الكراهية: الصراع الواقعي بين الجماعات، والهوية الاجتماعية، ونظرية الاستغلال، والتمييز المؤسسي.

1. الصراع الواقعي بين الجماعات

تفترض نظرية الصراع الواقعي بين الجماعات أن الصراع القائم بين مجموعات اجتماعية على المصالح والموارد المادية الطبيعية يستثير اتجاهات تعصبية متبادلة فيما بينها. هذا التصور يعتبر من أقدم التصورات النظرية التي طُرحت لتفسير التعصب والكراهية. لكل فئة أو جماعة مصالحها وأوضاعها التي قد تتناقض مع مصالح أو أوضاع فئات وجماعات أخرى. قد يؤدي سعي جماعة ما إلى تحقيق أهدافها إلى تشكيل تهديد مباشر لمصالح جماعة أخرى في تحقيق نفس الأهداف.

في هذا السياق، تنظر كل جماعة إلى الأخرى بوصفها مصدراً للتهديد المباشر، وهذا الإدراك يستثير تغييرين داخل كل جماعة: التغيير الأول يتضمن عداءً متزايداً تجاه الجماعة الخارجية، بينما يتضمن التغيير الثاني تعاضماً في الولاء للجماعة الداخلية والتأزر بين أعضائها. يسفر هذا عن وضع كل جماعة للأخرى على مسافة بوصفها حائلاً دون إنجاز مصالحها. ما يجعل اتجاهات التعصب والعداوة نتيجة طبيعية لهذا الصراع على الموارد هو ضغط الحاجات الاقتصادية الماسة التي تقتضي الإشباع، إضافة إلى ما يترتب على هذا الإشباع من مشاعر الاعتبار والمكانة الاجتماعية والنفوذ السياسي. (Clifford، 1997)

لو سلمنا بأن التعصب ينشأ عن تصارع الجماعات على المصادر الطبيعية، يمكننا أن نقلل من حدة التعصب لو أمكن توفير إشباع كافٍ ومشبع لكل الجماعات، وهو ما لا يتاح بشكل دائم في الواقع. من ثم، إذا

كانت صراعات المصالح والأهداف المتضاربة لا يمكن تجنبها دائماً، فإن ذلك يفسر بقاء التعصب كمشكلة تستغل على الحل في أحيان كثيرة.

2. دراسة شريف مظهر كمدخل صراعي

تأيدت هذه النظرية بقوة في الدراسة الكلاسيكية التي أجراها عالم النفس الاجتماعي مظفر شريف وزملاؤه عام 1961، والتي يعتبرها المتخصصون الممثل الرئيس لهذا المدخل في تفسير التعصب. شملت هذه الدراسة ثلاث تجارب ميدانية قدمت دليلاً قوياً على صدق المدخل الصراعي.

اشتملت العينة على اثنين وعشرين ولداً في سن الحادية عشرة من مجتمع كبير في ولاية أوكلاهوما الأمريكية، تمت دعوتهم لقضاء ثلاثة أسابيع في مخيم صيفي خاص. لم يكن الأولاد متعارفين قبل التجربة، لكنهم اختيروا بعناية لأنهم كانوا جميعاً حسني التكيف، أذكاء الذهن، وينحدرون من أسر ذات مستوى مريح من الطبقة الوسطى. كان موقع المخيم مثالياً لتحقيق كل مرحلة من مراحل الدراسة، فالمخيم كان واسعاً بما يكفي لتقسيم الأولاد إلى جماعتين منفصلتين، لكل منهما مرافق وألعاب رياضية خاصة بها، وكانت متباعدتين بدرجة لا تسمح لهما بالاتصال المباشر.

المرحلة الأولى استدعت النمو المتوازي لجماعتين متميزتين ومتماسكتين. استغرقت هذه المرحلة أسبوعاً واحداً، وبنهايته تكونت فعلاً جماعتان نفسيتان صلبتان في كلا المعسكرين. كانت كل جماعة تسود بينها روح التعاون، وتمتلك بناءً جماعياً محدداً يتميز بتنظيم واضح للمكانات والمعايير والمشاعر الجماعية المحددة.

المرحلة الثانية تضمنت جمع الجماعتين في نشاطات تنافسية كثيفة. كان من أبرز نتائجها استثارة العداوة بينهما بشكل بالغ، صحبها اشتداد التعاضد والتماسك داخل كل جماعة. نشأت انقسامات حادة وصراعات حقيقية بين الطرفين.

المرحلة الأخيرة استحدثت استراتيجيات جديدة تضمنت مواقف تحث على التعاون لإنجاز أهداف ضرورية وحتمية للجماعتين معاً. بنهاية هذه المرحلة، تشكلت جماعة كبيرة موحدة وحلت محل الجماعتين السابقتين المنقسمتين. (1961, Sherif)

أوضحت هذه الدراسة الرائدة أن التنافس والصراع يمكن أن يخلق الكراهية والعداوة بين الجماعات بسرعة وفعالية. كما أظهرت من جانب آخر كيف أن الغايات الجماعية المشتركة يمكن أن تؤدي إلى تعاون واتجاهات إيجابية متبادلة بين الجماعات. من هذه الدراسة الكلاسيكية والدراسات اللاحقة التي أيدتها، استخلص الباحثون مبادئ تفسيرية ذات درجة معقولة من العمومية. تفترض هذه المبادئ أن الديناميات الاجتماعية الأساسية للتعصب تتشابه بين الجماعات الصغيرة ذات التفاعل الوجهاً لوجه والجماعات الكبيرة الاجتماعية الثقافية. بعبارة أخرى، يمكن اعتبار علاقات التنافس والصراع بين الجماعات الصغيرة وما تسفر عنه من نتائج نموذجاً مصغراً يشابه إلى حد كبير صراعات المصلحة والقوة على المستوى الاجتماعي الأوسع.

3. نظرية الهوية الاجتماعية

عندما نقوم بعملية تصنيف العالم الاجتماعي إلى جماعات مختلفة، فإننا ننزع إلى التوحد بجماعة نتقاسم مع أفرادها الإحساس بالانتماء والشعور بالهوية المشتركة. تُسمى هذه الجماعة بجماعة "النحن" أو ما يطلق عليها في الأدبيات الاجتماعية بـ"الجماعة الداخلية". هويتنا الاجتماعية تستمد من كوننا أعضاء في هذا "النحن". هذه الفكرة، التي ترى أن هويتنا الاجتماعية تتحدد بعضويتنا وانتماءاتنا الاجتماعية، تتمتع بتاريخ طويل في الدراسات الاجتماعية، وتتضمن دلالات مهمة جداً فيما يتعلق بالسلوك بين الجماعات.

إحساسنا بمن نكون أو مفهومنا عن ذاتنا لا يتوقف على هويتنا الشخصية الفردية فحسب، بل يتأثر أيضاً بهويتنا الاجتماعية بشكل جوهري. من ثم، فإننا سوف نميل بقوة إلى رؤية جماعتنا الداخلية برؤية إيجابية في محاولة مستمرة لتكوين والإبقاء على تقدير ذات إيجابي مرتفع.

الافتراضات الرئيسة للنظرية: (Tajfel, 1979) تقوم نظرية الهوية الاجتماعية على ثلاثة افتراضات أساسية. أولاً، الناس يصنفون العالم الاجتماعي إلى جماعات داخلية (النحن) وأخرى خارجية (الآخرون). ثانياً، الناس يكتسبون إحساساً بتقدير الذات من هويتهم الاجتماعية كأعضاء فعليين في جماعة داخلية معينة. ثالثاً، مفهومات الناس عن أنفسهم تعتمد بشكل جزئي حاسم على كيفية تقييمهم لجماعتهم الداخلية بالنسبة إلى الجماعات الأخرى المنافسة.

وفقاً لهذه الافتراضات، تتوقع النظرية أن الأفراد يسعون بنشاط إلى دعم تقديرهم لذواتهم من خلال التوحد والانتماء إلى جماعات اجتماعية قوية. لكن هذه المساعي لا تنجح إلا بقدر ما يدرك هؤلاء الأفراد جماعتهم بوصفها متفوقة ومميزة مقارنة بالجماعات الأخرى. لأن كل الأفراد لديهم نفس الميول والدوافع الأساسية، فإن المحصلة النهائية هي أن كل جماعة تسعى بحماس إلى رؤية نفسها بوصفها الأفضل والأكثر تفوقاً بالنسبة إلى منافسيها. وينشأ التعصب بسبب تصادم هذه الإدراكات الاجتماعية، أي بسبب تضارب إدراكات كل جماعة لنفسها على أنها الأفضل والأرق.

بعبارة أخرى، إذا افترضنا أن رغبة الفرد في تقدير ذاته بشكل إيجابي رغبة أساسية وضرورية، وإذا افترضنا أن هذا التقدير يعتمد جزئياً على كيفية نظر الفرد إلى جماعته، فإنه سيحاول جاهداً النظر إلى جماعته بوصفها إيجابية ومميزة قدر الإمكان. يتحقق هذا عبر بحثه المستمر عن مقارنة جماعته بالجماعات الأخرى، مقارنة يحاول في الغالب أن ينهها منحازاً لصالح جماعته بكل الطرق الممكنة.

التطبيق على الواقع المعاصر: في سياق الأزمات السياسية والاجتماعية في دول عديدة، نجد أن الانقسامات بين المجموعات السياسية والدينية في بلدان مثل العراق وسوريا ولبنان تعكس هذه الديناميات بشكل واضح. كل جماعة تحاول إظهار نفسها بصورة إيجابية متفوقة، بينما تهاجم الجماعات الأخرى بقسوة، مما يؤدي إلى تعصب متبادل وخطاب كراهية حاد.

4. القوة والمكانة غير المتكافئة بين الجماعات (نظرية الاستغلال)

كثير من الاتجاهات التعصبية العميقة يعكس صراعات طويلة وجذرية بين الجماعات. في مثل هذه الحالات، فإن فهم التعصب بين الجماعات يقتضي أن نضع في الاعتبار بجدية التاريخ الطويل والمعقد للعلاقات فيما بينها. هذا المدخل التاريخي يؤكد بقوة أن الاتجاهات التعصبية تنشأ غالباً كتبرير مباشر للاستغلال والقهر الذي تمارسه الجماعات الأكثر قوة وهيمنة بحق الجماعات الأضعف والمستضعفة.

لقد ناقش المؤرخون والباحثون الاجتماعيون القوى التاريخية التي تخلق التباينات في المكانة والقوة بين الجماعات. لكن ما يعنينا هنا هو أنه بمجرد وجود هذه التباينات المكانية والقوية، فإن التعصب يسهم مباشرة في تبرير التفوق والسيطرة أو في خدمة مصالح التفوق لهؤلاء الذين يملكون الثروة والقوة السياسية والاقتصادية.

يمكن أن نعتبر هذا التصور مكتملاً قوياً للتصور الذي اقترحته نظرية الصراع الواقعي. العلاقة الصراعية بين الجماعات غالباً ما تنتهي بسيطرة إحداها على الأخرى. عندئذ تسعى الجماعة المنتصرة والمسيطرة إلى ترسيخ سيطرتها وبسط نفوذها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. يصاحب ذلك في الغالب احتقار الجماعة المهزومة والمنهزمة والنظر إليها بوصفها متدنية وناقصة، وهذا يتم كحيلة نفسية وأيديولوجية تلجأ إليها الجماعة المسيطرة لتبرير هيمنتها واستغلالها المستمر. (Cox، 1948)

الاتجاهات السلبية والنظرة الدونية في هذه الحالة تختلق العذر والمبرر لعمليات الاستغلال والتسلط المختلفة. التعصب إذا ليس غير مظهر من مظاهر استغلال الإنسان للإنسان. بعبارة أدق، إنه أيديولوجيا تضفي المنطقية والمشروعية على الظلم والجور الذي يقع على جماعات سُلبت حقوقها وسُتغل طاقاتها لصالح الجماعات المسيطرة.

التطبيق على الواقع المعاصر: في الهند، لا يزال نظام الطبقات العرقي (الكاسته) يعكس هذه الديناميات بشكل صارخ، حيث تبرر الجماعات العليا تفوقها بنظريات دينية وأيديولوجية مستوحاة من الهندوسية. في جنوب أفريقيا، تركت سياسة الفصل العنصري (الأبارتهايد) سابقاً أثراً عميقة على الأيديولوجيات التعصبية التي لا تزال موجودة. وفي الولايات المتحدة، لا تزال بقايا العنصرية ضد الأمريكيين من أصول أفريقية محسوسة بقوة حتى يومنا هذا.

5. الجماعة المسيطرة وتبرير الاستغلال:

الجماعة المسيطرة تغرس في نفوس أعضائها بنشاط الشعور العميق بالتفوق والإيمان الراسخ بأن ما يحصلون عليه من مزايا ومكاسب هو حق مكتسب طبيعي لا ينبغي لهم التنازل عنه بأي حال من الأحوال. كما تقنعهم بأن الآخرين عليهم أن يعملوا ويخدموا مصالحهم. هذا يؤدي بهم إلى تكوين قوالب نمطية وصور ذهنية مشوهة تضع هؤلاء الآخرين في مرتبة أدنى بكثير، بحيث تبرر هذا الموقف التفوقي وتحافظ عليه في نفس الوقت.

تماماً مثلما ينظر البيض من الأمريكيين تاريخياً إلى السود بوصفهم كسالى، وغير جادين، ومحدودي الذكاء والقدرات. لا شك أن هذه النظرة الجائرة تعزز الشعور بالتفوق وتبرر المكانة المتميزة والامتيازات التي يحظى بها البيض، وتجعل من أي محاولة لمساواة السود بهم غير ذات موضوع ومنطق.

كما أن نظام العبودية يقدم أوضح الأمثلة على علاقات السيطرة والاستغلال في التاريخ البشري. بحيث يقدم دليلاً واضحاً جداً على وظيفة التعصب كمسوغ مبرر للوضع غير العادل والظالم بين الجماعات. كان السيد يرى العبد على أنه بالطبيعة متدنٍ: كسول، غير مسئول، ناقص العقل، محدود الطموح، وفقط لأنه بهذه الصفات المختلفة فإن ذلك يبرر استعباده واستغلاله. يتذكر كثيرون كيف كان كتاب وسياسيو أوروبا

في القرن التاسع عشر يبررون التوسع الاستعماري بوصف شعوب المستعمرات كأجناس دنيا تحتاج إلى الحماية والتمدن، في إطار ما وصفوه حينها بـ"عبء الرجل الأبيض".

بالنظر إلى التاريخ الأمريكي، ندرك بوضوح كيف أن الأمريكيين وظفوا مقولات العنصرية والتفوق العرقي كمبرر مباشر لاسترقاق واستغلال ضحاياهم من السود والأفارقة، خاصة في ولايات الجنوب الأمريكي. عدد من التجارب العملية أوضح بالفعل أن تنمية اتجاهات تعصبية ولا إنسانية ضد ضحايا الأفعال الضارة التي يرتكبها شخص ما تبدو كاستجابة عامة بشكل واضح جداً. من خلال تجريد الضحايا من الصفات الإنسانية ومعاملتهم باعتبارهم دون بشريين والخط من شأنهم، يمكن للمستغلين ليس فقط تجنب التفكير في أنفسهم كأوغاد وأنذال، بل يمكنهم تبرير مزيد من سلوك الاستغلال والإيذاء.

من المهم الإشارة إلى أن أحوال وظروف الجماعة المستغلة قد تعطي مبررات ظاهرية للاتجاهات التعصبية التي تبديها الجماعة المستغلة ضدها. غير أن التفكير الجدلي الصحيح يستطيع أن يتوصل من وراء هذا المظهر السطحي إلى التعقد والتشابك الحقيقي الذي تنطوي عليه علاقة التعصب: أحوال وظروف الجماعة المستغلة ليست السبب الحقيقي للتعصب ضدها، بل هي قبل ذلك نتيجة مباشرة لهذا التعصب. إنها من صنع الجماعة المسيطرة والمستغلة نفسها.

إن ممارسة التعصب تزيد من تدهور الجماعة التي يمارس ضدها التعصب، وبذلك تكتمل عناصر الحركة الجدلية في علاقة التعصب: من يمارس الاضطهاد يعمل - عن وعي أو بغير وعي - على إبقاء من يضطهده في حالة يكون فيها جديراً بأن يضطهد. كلما ازداد الاضطهاد وطال أمده، اشتد التدهور الذي يبرر الاضطهاد ويخلق له المعايير، وازداد التباعد والاستقطاب بين طرفي علاقة التعصب.

خاتمة:

تُظهر الديناميات الاجتماعية والنفسية معاً أن البناء الاجتماعي لا يكتفي بتشكيل موقع الجماعات في هرم القوة والموارد، بل يساهم أيضاً في شحن البنى النفسية للأفراد بمحتوى تعصبي يُعاد إنتاجه باستمرار بين الجماعات. فالصراع على المصالح والموارد المحدودة، والشعور بالحرمان النسبي مقارنة بالجماعات المهيمنة، والسياسات التمييزية الرسمية، تعمل في الوقت نفسه كعوامل بنيوية ومحفزات نفسية تغذي مشاعر الغبن والتهديد وتُطلق آليات دفاعية كالإسقاط والإزاحة وتفضيل الجماعة الداخلية على حساب الجماعات الخارجية.

وتوضح الأدبيات النفسية الاجتماعية أن التعصب، وإن بدا ظاهرة جمعيّة تتجلى في مواقف وسياسات وسلوكات جماعية، فإنه يُختبر في النهاية كخبرة فردية راسخة في الهوية والانفعالات والتمثيلات الذهنية التي يحملها الأفراد عن ذواتهم وعن "الآخر". فالاتجاهات التعصبية التي يتبناها الشخص لا تنشأ في فراغ، بل يمكن تتبع جذورها في جماعته المرجعية، وفي أنماط التنشئة الاجتماعية، والخطاب الإعلامي، وخبرات التفاعل اليومي التي تمنح صوراً نمطية وتبريرات "منطقية" للكرهية والإقصاء.

من هذا المنظور التكاملي، يغدو التعصب نتاجاً لتفاعل مستمر بين البنى الاجتماعية (اللامساواة، الصراع الطبقي/العرقي، التمييز المؤسسي) والبنى النفسية (الحاجة إلى تقدير الذات، البحث عن هوية إيجابية، الخوف من التهديد، آليات الدفاع). وتطرح هذه الرؤية أسئلة بحثية حاسمة حول الكيفية التي

تنتقل بها أنماط الكراهية من المستوى البنيوي إلى التجربة الفردية عبر مسارات التنشئة والوراثة الثقافية، وكيف يمكن التدخل في هذه المسارات – تربوياً وإعلامياً وقانونياً – لكسر دائرة إعادة إنتاج التعصب وخطاب الكراهية في المجتمعات المعاصرة.

بناءً على هذا الفهم التقاطعي، تبرز الحاجة الماسة لاستراتيجيات تدخل عملية تتجاوز حدود التنظير لتفكيك خطاب الكراهية في جذوره، من خلال تعزيز برامج (التربية الإعلامية والرقمية) في المناهج الدراسية، لتدريب الأفراد على التفكير النقدي وتفكيك الصور النمطية التي يروجها الإعلام الكلاسيكي والرقمي، وتطوير مهارات التعاطف بين مختلف الفئات الاجتماعية.

أما في اتجاه المسار التكنولوجي والقانوني ضرورة فرض سياسات قانونية صارمة تلزم شركات التكنولوجيا الكبرى بتعديل خوارزمياتها التي تترجح من نشر المحتوى الاستقطابي، وتطوير أنظمة ذكاء اصطناعي أكثر دقة لرصد وتفكيك خطابات الكراهية المبطنة قبل انتشارها، دون المساس بحرية التعبير. كما تشجيع التفاعل المباشر والإيجابي بين الجماعات المتصارعة في بيئات متكافئة (كالمؤسسات المدنية وأماكن العمل والجامعات)، حيث أثبتت الدراسات السوسيولوجية أن الاتصال المباشر الهادف يكسر حواجز (الجهل بالآخر) ويقلل من الشعور بـ (الحرمان النسبي) والتهديد.

قائمة المصادر والمراجع:

- Clifford, S. &. (1997). Social identity theory and intergroup relations. *Journal of Social Psychology*, 180-195.
- Cox, O. C. (1948). *Caste, class, and race: A study in social dynamics*. New York: Monthly Review Press.
- Runciman, W. G. (1966). *Relative deprivation and social justice: A study of attitudes to social inequality in twentieth century*. England: University of California Press.
- Sherif, M. H. (1961). *Intergroup conflict and cooperation: The Robbers Cave experiment*. Norman: University Book Exchange.
- speech, R. o. (1997). Council of Europe, Committee of Ministers. Council of Europe.
- Tajfel, H. &. (1979). *An integrative theory of intergroup conflict* *The social psychology of intergroup relations*. Monterey.
- Taylor, S. E. (1997). *Social psychology*.
- فؤاد، ز.، القاهرة 1971، سيكولوجية التعصب. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- لندا، د. د. ت. مدخل إلى علم النفس. القاهرة: دار ماكجروهيل.
- عبد الوهاب، فاطمة (2021). دور المنصات الرقمية في توجيه الرأي العام وتأجيج خطاب الكراهية. مجلة البحوث الإعلامية، جامعة القاهرة، 57(2).
- محمد، ا (2018). خطاب الكراهية والمحاصرة الطائفية: دراسة في الجذور الاجتماعية. المجلة العربية لعلم الاجتماع-150-175.